العقل الباطن

رجل ابيض الوجه اشقر الشعر كبير الرأس مستديره عالي الجبين بارزهُ نحسبهُ من كبار الفلاسفة ثم تكلمهُ في امور الدنيا فنجدهُ ابله لا يدرك شيئاً وكيف لا يكون كذلك وعملهُ الوحيد الذي يعيش بهِ حمل جرتين من الماء من العين الى المدرسة كأنهُ دابة من دواب الحمل . عرفناهُ في صبانا ونحن نطلب العلم في مدرسة عيبه بأتي بجرار الماء ساعة بعد اخرى ومتى أنتهى التلامذة من طعامهم دخل المطبخ واكل من فضلاتهم

قد يقول القارئ ان رجلاً مثل هذا لا يستحق ان نفتتح بهِ مقالة فلسفية . لكن اسألهُ في اي يوم من الاسبوع وقع اليوم الثامن عشر من شهر يوليو سنة ١٨٥٢ مثلاً فيقول لك يوم الاحد على الفور . واسألهُ في اي يوم من الاسبوع وقع اليوم الثامن من شهر دسمبر سنة ١٨٣٠ فيقول لك يوم الاربعاء . تأخذ القلم لتحسب فيتعذر عليك الحساب ولكنك ترجع الى النتائج والازياج فتجد ان ذلك السقاء الابله مصيب في كل ما قال وقد عمل عقلهُ الباطن عملية حسابية عويصة جداً واتمها في بضع ثوان واسحق نيوتن لا يستطيع ان يتمها في بضع دقائق ولو استعان بالقلم والقرطاس وجداول اللوغرثمات

قد نقول ما هو هذا العقل الباطن واين مقرهُ وما هي خواصهُ ومزاياهُ وهل هو شيء موجود حقيقة ولماذا لا نراهُ في كل الناس

الموضوع جليل والبحث فيهِ حديث والقول بهذا العقل اهم ما قال بهِ الفلاسفة في هذه الايام . وقد نعتوهُ بالسبلمنال Subliminal ومعناهُ الذي تحت العتبة اي تحت عتبة الوجدان او وراء الوجدان لان الوجدان لا يتصل اليهِ . والاستعارة غريبة ولكن الالفة تزيل الغرابة ونرى ان ترجمة ذلك بالعقل الباطن تنطبق على المراد . فان حمّال الرجل المشار اليهِ آنفاً لمسائل الحسابية من غير قلم ومن غير ان يتعلم قواعد الحساب او يجري عليها ومن غير ان يدرك ما هو فاعل يدلُّ دلالة قاطعة على ان فيهِ عقلاً يحسب على اسلوب لا نعلمهُ وبسرعة لم نعتدها ويصل الى النتيجة المطلوبة كأنهُ يرى السنين مكتوبة امامهُ في جدول وامام كل يوم من كل شهر اسم اليوم من الاسبوع الذي يقع فيهِ . يرى ذلك ويعلمهُ بعين هذا العقل وهو اعمى لا يعرف الكتابة ولا القراءة

وقد يظن لاول وهلة اننا مبالغون في ما نرويهِ عن هذا الرجل وقد يكون فيهِ شيء من المبالغة اذ قد مضى عليهِ الآن نحو نصف قرن ونحن نروي معتمدين على الذاكرة والذاكرة قد تخدع

صاحبها ولكن غيرنا شاهد اناساً مثل هذا الرجل وكتب ما شاهده حال مشاهدته . ومن هذا القبيل ما يروى عن بعض الحسّاب الذين يضربون بضعة ارقام ببضعة ارقام اخرى في ذهنهم ويستخرجون حاصل الضرب باسرع مما يستخرجه امهر الحسّاب بقلمه . وقد رأينا واحداً منهم في باريس منذ سنتين وظاهر الامر انهُ غير خادع . ولماذا نبعد ونفتش عن الشواذ وهذا النوع من العقل الباطن او الشعور الباطن موجود في كل احد . فالخطيب الذي يرتجل خطبة طويلة مفعمة بالادلة والشواهد . والشاعر الذي تجود قريحتهُ في بعض الاحيان فينظم البيت بعد البيت من غير توقف ويستحضر ذهنهُ المعاني والقوافي . والمجادل الذي تخرجهُ فيسرد لك الدليل بعد الدليل من غير توقف . والمحرر الذي يدعى بغتةً لانشاء مقالة كبيرة في دقائق قليلة فيسبق فكرهُ قلمهُ وهو لو حاول انشاءها في وقت آخر لتعذّر عليهِ ان يأتي بربعها في ذلك الوقت . كل هؤلاء يعتمدون على عقلهم الباطن وهم لا يدرون فهو شيطانهم الذي يوحي اليهم او قريحتهم التي تنبّه فتستيقظ وتجود

كتب بعضهم في مجلة المعرفة الانكليزية يقول اذا وقعت على يدك ذبابة صغيرة فقد لا تشعر بها مطلقاً . اي ان الشعور بها صفر او لا شيء ولكن اذا وقع على يدك ست ذبابات مثلها فانك تشعر بها حالاً مع ان مجموع ستة اصفار صفر اذ انهُ لا يتكون شيء من لا شيء . وهذا يدل ان للشعور الظاهر بالمؤثرات حدّاً لا يتجاوزهُ فاذا ضعف المؤثر عن ذلك الحد لم نعد نشعر بهِ . ولكن عدم شعورنا بهِ لا ينفي وجودهُ ولا ينفي انهُ اثّر فينا وان فينا قوة باطنة قد تشعر بهِ . والادلة على ذلك كثيرة . قال الدكتور ملن برامول انهُ توهّم بعض الناس تنويماً مغنطيسياً وامرهم ان يفعلوا بعض الافعال بعد ما يستيقظون . ولما استيقظوا لم يكن عقلهم الظاهر يدري شيئاً مما أُمروا بهِ واما عقلهم الباطن فكان مدركاً ما أُمروا بهِ وعمل بهِ في الميعاد المعين . مثال ذلك انهُ امر امرأة ان ترسم رسماً معلوماً على ورقة بعد ٢٤ ساعة و ٢٨٨٠ دقيقة وقد امرها بذلك في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر من اليوم الثامن عشر من شهر دسمبر . فرسمت ذلك الرسم في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر من اليوم الحادي والعشرين من شهر دسمبر اي في الدقيقة المعينة تماماً . وعيّن لها اوقاتاً اخرى وكلها بالوف الدقائق ففعلت ما امرها بهِ وهي لا تدري ان عقلها الباطن يحوّل الدقائق الى ساعات وايام ويجعلها تفعل ما أُمرت بهِ وهي نائمة ولو شاءت ان تحول تلك الدقائق الى ساعات وايام في يقظتها لتعذر عليها تحويلها من غير قلم وقرطاس كما يتعذر على غيرها . فعقلها الباطن كان يدرك ويحسب وهو امهر من عقلها الظاهر .

ومن المحتمل ان الذين يضعف فيهم العقل الظاهر يقوى فيهم العقل الباطن كما تقدم في امر السقاء الذي ذكرناهُ آنفاً وفي كثيرين من المخلي الشعور

ومما لا شبهة فيهِ ان ذاكرة العقل الباطن احفظ من ذاكرة العقل الظاهر فكم من امر نسيناهُ ثم تذكرهُ ونحن نيام او اذا أُصبنا بحمّى او أُعطينا البنج . كأن ما يضعف سلطة العقل الظاهر يفتح باب العقل الباطن . ويعلم المؤلفون والمصنفون انهم يخترعون اكثر معاني ما يكتبونهُ وهم بين النوم واليقظة او وهم سكارى او تحت فعل المخدرات كالحشيش والافيون . واذا صحوا لم يستطيعوا شيئاً . هؤلاء النوابغ يذهل الواحد منهم فيتدفق كالسيل في ما ينظمهُ او يصنفهُ حتى اذا استيقظ من ذهولهِ بلدت قريحتهُ وعصت اوامرهُ بل هي تكره الامر ولا تفعل الاَّ مختارة

وانا نعرف اكثر من شاعر وناثر بين الاحياء والاموات لا يجيدون النظم والنثر الاَّ اذا شربوا سكراً او تخدَّر دماغهم بمخدر ما . ونعرف شاعراً كبيراً كان يملأ معدتهُ بالقهوة ودماغهُ بدخان التبغ قبلما يُفتح عليهِ لينظم ما يريد نظمهُ من الشعر . وكاتباً آخر كان يتعاطى الحشيش فيصير وهو تحت فعلهِ من ابلغ المحدثين وارباب الجدل يسرد لك اقوال رسو وشوبنهور مع انهُ عربي ومعرفتهُ بالفرنسوية المام الاَّ انهُ طالع كثيراً فيها واذا زال فعل الحشيش صار كأنهُ من عامة الناس . ومحامياً كان يتعاطى الافيون فاذا كان تحت فعلهِ صار فصيح اللسان قوي العارضة بالغ الحجة حتى اذا انقضى فعلهُ عاد من اضعف الناس واخملهم . وطبيباً كانت تعتريهِ السوداء فيجلس مطرقاً كاسف البال لا يتكلم الاَّ عما هو فيهِ من المرض والبؤس ثم تزول النوبة فلا يشق لهُ غبار في البداهة وخفة الروح وحسن الحاضرة

كل هؤلاء يمكن تفسير ما يعتريهم بتنبه عقلهم الباطن حينما يتولى الضعف عقلهم الظاهر وبان في خزائن العقل الباطن محفوظات كثيرة كما في خزائن العقل الظاهر او اكثر من الحوادث التي تجري هذا المجرى ان واتر سكوت الكاتب الانكليزي المشهور املى روايتهُ المعنونة بعروس لمرمور وهو مريض جداً وعقلاً ثم لما شفي وقرئت لهُ استغربها ولم يصدق انهُ هو الذي املاها . وقال الكاتب ستفنصن مؤلف رواية جزيرة الكنز انهُ كتب خمسة عشر فصلاً منها في خمسة عشر يوماً وفرغ جرابهُ . قال « ووقفت هنالك كأن لم يبقَ في ذهني كلة اكتبها » . ثم علا المدُّ بعد هذا الجزر وجرت القريحة وجعل يتشهَّ فصلاً كل يوم الى ان تمَّ الرواية . وقال انهُ كان يحلم بوقائع هذه القصة ثم ينهض ويكتبها

وما يقال عن الشعراء والكتَّاب عموماً يقال عن المصورين والموسيقيين وكل اهل

القرائح فانهم كلهم يستنبطون ويخترعون كأنهُ يوحى اليهم ولا يدركون كيف يفعلون ذلك واذا تعمَّلوا عجزوا عن العجيء بمثل ما يجيئون بهِ على البداهة

والظاهر ان لهذا العقل الباطن قوى مختلفة كالعقل الظاهر فيشعر ويدرك ويحفظ ويتخيَّل ويستنبط وافعالهُ تفوق افعال العقل الظاهر . وترى الفلاسفة يبحثون اليوم في ما كنَّا نعدهُ بالامس من اوهام اهل التصوُّف او اهل الباطن وبحثهم فيهِ جديد ابتدأ بهِ ميرس منذ خمس وعشرين سنة وقال فيهِ الاستاذ وليم جمس انهُ « اعظم ما شادتهُ الفلسفة العقلية حديثاً وكل يوم نرى لهُ دعامة جديدة تدعمهُ »

ومن رأي بعض الباحثين ان هذا العقل الباطن جوهر عام يشترك فيهِ جميع الناس اي انهُ كالاثير الذي يخلل الاجسام الارضية . وهو رأي في غاية الغرابة ولكن تفسَّر بهِ امور كثيرة عمَّا يصعب تفسيرهُ بغيرهِ واذا اثبتتهُ المباحث التالية اثباتاً ينفي الريب ثبت منهُ ان الناس كلهم عائلة واحدة او اعضاء جسم واحد مشتركون في نفس واحدة . واذا رسخ هذا الاعتقاد في جميع الناس صارت الارض سماء وانتفت منها الشرور والمظالم والمطامع ولكن هيهات ثم هيهات . واذا تحققت هذه الامنية فلا يكون تحققها في ايامنا ولا في ايام اولادنا وقد لا يتجلى القرن العشرين الاَّ عن مثل حروب البلقان وثوران البركان

الطيران فوق الالب

لقد كان عبور جبال الالب الغاية التي سعى اليها كبار الفاتحين مثل هنيبال ونبوليون وتجشموا في سبيلها اشد المشاق . اما وقد تيسَّر ركوب الهواء فلم يشأ الطيارون ان تقف تلك الجبال في سبيلهم فقطع قولها اول طيار منذ سنتين لكنهُ لم يصل الى الارض سالماً وهو المسيو جورج شافه فقام احد ابناء بلادهِ واخذ يطارهِ فطار من بريغ Brigue الى دومودسولا Domo d'Ossola فوق الطريق الذي يمر فيهِ ضرب سمبلن في ٢٦ دقيقة لا غير وقد وصف كيفية طيرانهِ قال :—

لقد مُنيت نفسي منذ زمن بالطيران فوق جبال الالب . وكانت امور كثيرة تدفعني الى هذا العمل المحفوف بالمخاطر اخصها ان ابيّن ان ما كان يعدُّ ضرباً من المحال سنة ١٩١٠ صار امراً ميسوراً الآن بعد ان اتقنت آلات الطيران ذات السطح الواحد وصار الخطر في ركوبها اقل عمَّا كان قبلاً . ثم اني كنت اود ان آخذ بثار ابن وطني جورج شافه الذي طار فوق تلك الجبال منذ اكثر من سنتين ولكنهُ وقع الى الارض وهو يحاول النزول فقضى عليهِ